رويّ الياء

أغلب الحيّزين

ذكر سيف الدولة لأبي العشائر أباه وجده فقال أبو الطيب: [الخفيف]

أَغْلَبُ الْحَيِّزَيْنِ مَا كُنْتَ فِيهِ
وَوَلِيُّ النَّمَاءِ مَنْ تَنْمِيهِ[١]
ذَا الَّذِي أَنْتَ جَدُّهُ وَأَبُوهُ
دِنْيَةً دُونَ جَدِّهِ وَأَبِيهِ[٢]

كفى بك داءً

فارق أبو الطيب سيف الدولة ورحل إلى دمشق وكاتبه الأستاذ كافور بالمسير إليه، فلما ورد مصر أخلى له كافور داراً وخلع عليه وحمل إليه آلافاً من الدراهم فقال يمدحه وأنشده إياها في جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاث مئة (٩٥٧م): [الطويل]

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا[٣]

---

(١) الحيز: المكان المحتوي على شيء ما. الولي: الصاحب. تنميه: ترفعه. يُخاطب الشاعر أنه ينتمي إلى أفضل الجانبين، فعشيرته أفضل العشيرتين إذا انتسبتا إلى المفاخر والأنساب، إنه ينتمي إلى قبيلة توارثت الأمجاد عبر الأجيال، وبذلك تغلبت على من سواها من القبائل في مفاخرها. والأمير بمثابة رأسها فلا بدّ أن تسمو بسموّه وترتفع بعزته.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. أمالي ابن الشجري ١: ٧٦. دنية: قرباً. يُخاطب الشاعر ممدوحه، ويُوصيه بربيبه من بني قومه، فأبو العشائر بمثابة أبيه وجدّه، فهو تحت جناحه ورعايته وغذي نعمته، فمن الطبيعي أن يكون ولاؤه للأمير، فيه يفتخر وبه يعلو على الأقران.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٧. الأماني، الواحدة أمنية: ما =

تَـمَـنَّـيْـتَـهَـا لَـمَّـا تَـمَـنَّـيْـتَ أَنْ تَـرَى
صَـدِيـقـاً فَـأَعْـيَـا أَوْ عَـدُوًّا مُـدَاجِـيَـا[١]
إِذَا كُـنْـتَ تَـرْضَـى أَنْ تَـعِـيـشَ بـذِلَّـةٍ
فَـلَا تَـسْـتَـعِـدَّنَّ الْـحُـسَـامَ الْـيَـمَـانِـيَـا[٢]
وَلَا تَـسْـتَـطِـيـلَـنَّ الـرِّمَـاحَ لِـغَـارَةٍ
وَلَا تَـسْـتَـجِـيـدَنَّ الْـعِـتَـاقَ الْـمَـذَاكِـيَـا[٣]
فَـمَـا يَـنْـفَـعُ الْأُسْـدَ الْـحَـيَـاءُ مِـنَ الـطَّـوَى
وَلَا تُـتَّـقَـى حَـتَّـى تَـكُـونَ ضَـوَارِيَـا[٤]

= يتمنى المرء من خير. المنايا، الواحدة منيَّة: الموت. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع وجداني، يتكشّف فيه تشاؤمه، ويعرّي ضعفه، فضلاً عن مقته من حالة بائسة وصل إليها، لذا فأسهل داء أن يواجه المرء الموت المريح بشجاعة، إنه أفضل الأماني وأحبّها لقلبه.

(١) أعيا الأمر: أتعب وأعجز. المداجي: المخادع. نظر الشاعر حواليه فلم يجد من يُرجيه ويرجو فيه خيراً، فلا صديق صادق الودّ ويُخلص الحبّ، حتى من يُداري فيُظهر حباً ويُضمر كرهاً قد اختفى، فلا أمل ولا رجاء في حياة، لقد فشل في العثور على شبه صديق، لذا تمنّى الموت، وهو أرخص سلعة وأوفرها في حالة كهذه.

(٢) استعده: اتّخذه عدة له. الحسام: السيف البتّار. اليماني: السيف المصنوع في بلاد اليمن. يُخاطب الشاعر نفسه، إن أراد أن يعيش في الظلّ، ويُؤثر حياة الذلّ والتعاسة، فعليه ألّا يستعين ويتّخذ السلاح عدّة، لأن السيف عدّة من عزم على النضال لرفع الظلم عنه.

(٣) تستطيلن الرماح: تطلبها طويلة. تستجيدن: تبحث عن الجيد من السلاح. العتاق: الخيول الكريمة. المذاكي من الخيول: التي تمّت أسنانها. يُردف الشاعر أن على من آثر حياة الذلّ ألّا يستعمل الرماح الطويلة والسلاح الجيّد، ولا يختار لنفسه كرائم الخيول من العتاق البتة، كلّ ذلك لا طائل تحته في هذه الحالة.

(٤) الطوى: الجوع. تُتّقى: تُجتنب وتُحذر. الضواري، الواحد ضارٍ: الوحش المفترس الحريص على الصيد. يرى الشاعر أن على من أراد أن يكون مرهوب الجانب أن يُكشر عن أنيابه ويجعلها حادّة قاطعة؛ فالأسد لا يسمّى أسداً إلّا إذا كان مثيراً للرعب ينتهز فرصة ليصطاد فريسته، ولا يتأتّى له ذلك إلّا إذا تعوّد المطاردة والفتك بطرائده وفرائسه.

حَبَبْتُك قَلْبي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى
وَقَدْ كَانَ غَدَّاراً فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا[١]
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ
فَلَسْتَ فُؤَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيَا[٢]
فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا
إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا[٣]
إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصاً مِنَ الْأَذَى
فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوباً وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا[٤]
وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَتَى
أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا[٥]

(١) نأى: بعد. يُخاطب الشاعر قلبه، فقد أخلص له الحبّ، والقلب لا يزال يتنازعه نازعان: نازع الحبّ والوفاء ونازع النقمة والحنق، لذا يطلب منه ألّا يضعف أمام مغريات الإخلاص، فليمكن إخلاص القلب لصاحبه دون سواه من غدر وتنكّر للوفاء.

(٢) البين: البعد. يُخاطب الشاعر قلبه، ويُعلن عزمه على البراءة منه إن هو لا يزال يشكو الفراق بدافع حبّه لسيف الدولة.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. يروى «الظاعنين» بدلاً من «الغادرين» ربّها: صاحبها. يُعقّب الشاعر أن من الوفاء أن تتّبع الدموع صاحبها ولا تجري إثر غادر تنكّر لصاحبها وتنكر للوفاء له بما قدّم من أفضال في الإشادة بذكره والإعلان عن خصائصه وعلوّ شأنه.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٨٢/ ٢: ٢٢٤، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٤٠، شذور الذهب، لابن هشام: ١٩٨، التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد ١: ١٩٩. يرى الشاعر أن الكرم يجب أن يكون خالصاً لا تشوبه شائبة المن ممّا يشوّه معناه الأصيل ويُكدّر على المستفيد منه، ويجعله يُحسّ بالنقص، فيُثير فيه عدم الامتنان لصاحبه؛ ذلك أن المال سلعة نافدة لا تبقى بأيدي الناس، وما يبقى هو الشعور بالامتنان في حال لم يكدّر العطاء بالمنّ.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. التساخي: تكلّف السخاء. السخاء: الجود. يُعقّب الشاعر أن ما يصدر عن النفس من عمل يكشف طبيعة =

أَقِلَّ ٱشْتِيَاقاً أَيُّهَا الْقَلْبُ رُبَّمَا
رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوُدَّ مَنْ لَيْسَ صَافِيَا[١]
خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصِّبَا
لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا[٢]
وَلٰكِنَّ بِالْفُسْطَاطِ بَحْراً أَزَرْتُهُ
حَيَاتِي وَنُصْحِي وَالْهَوَى وَالْقَوَافِيَا[٣]
وَجُرْداً مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا الْقَنَا
فَبِتْنَ خِفَافاً يَتَّبِعْنَ الْعَوَالِيَا[٤]

= صاحبه، إن كان ما يفعله متأصلاً فيه، يصدر عن حبّ وقناعة أم أنه يصطنع ذلك ليُقال: إنه كريم، شجاع، عفوّ... ينذّد الشاعر بسيف الدولة، فكرمه مصطنع لا ينبع من نفس كريمة طبعاً وتطبّعاً.

(١) يُخاطب الشاعر قلبه ليُخفّف من وطأة شوقه وغلوائه، فمن طبعه الإخلاص الصادق الذي يفيض به، ذلك أن من يُخلص له لم تصف سريرته، وإنما تنطوي على مكر ودهاء وخبث، فالأوجب التخلص من هذا الشوق الجامح.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. يروى «رحلت» بدلاً من «رجعت». يُعقّب الشاعر أن من طبيعته الإخلاص، حتى مفارقة الشيب، والشيب مكروه لما ينتج عنه من قرب الأجل وإعراض الغواني عن صاحبه، فإنه إذا غادره بكى لأجل فراقه لأنه وفيّ مخلص وإذا كان الشيب المذموم فبالتالي سيف الدولة مذموم أيضاً.

(٣) الفسطاط: مصر القديمة. النصح: الإخلاص. يتخلّص الشاعر إلى مدح كافور، إنه بحر يزخر بالمكارم والفضائل، فجوده خفّف عنه ألم فراق سيف الدولة، وهو يحمل معه الهدايا القيّمة: نصحه قوامه الرأي الحسن والإخلاص في السرّ والعلن، وحياته وما تحمل من معانٍ، وحبّه لشخصه، وشعره الذي يجعله نابهاً من خلال التغني بفضائله وإنجازاته العظيمة.

(٤) وردت الأبيات الخمسة المتتالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. الجُرد من الخيول: قصار الشعر. القنا: الرماح. العوالي، الواحدة عالية: صدر الرمح مما يلي السنان. يُردف الشاعر حديثه عن هداياه لكافور، إنها من الخيول الجرد الجميلة ذوات الشعور القصار، وقد مدّ فوق رؤوسها رماحاً مشرّعة، فإذا بها تعدو مسرعة متوجّهة تبعاً لاتجاه الرماح.

تَـمَـاشَـى بـأَيْـدٍ كُـلَّـمَـا وَافَـتِ الـصَّـفَـا
نَـقَـشْـنَ بِـهِ صَـدْرَ الْـبُـزَاةِ حَـوَافِـيَـا[١]
وَتَـنْـظُـرُ مِـنْ سُـودٍ صَـوَادِقَ فـي الـدُّجَـى
يَـرَيْـنَ بَـعِـيـدَاتِ الـشُّـخُـوصِ كَـمَـا هِـيَـا[٢]
وَتَـنْـصِـبُ لِـلْـجَـرْسِ الْـخَـفِـيِّ سَـوَامِـعـاً
يَـخَـلْـنَ مُـنَـاجَـاةَ الـضَّـمِـيـرِ تَـنَـادِيَـا[٣]
تُـجَـاذِبُ فُـرْسَـانَ الـصَّـبَـاحِ أَعِـنَّـةً
كَـأَنَّ عَـلَـى الأَعْـنَـاقِ مِـنْـهَـا أَفَـاعِـيَـا[٤]
بِـعَـزْمٍ يَـسِـيـرُ الْـجِـسْـمُ فـي الـسَّـرْجِ رَاكِـبـاً
بِـهِ وَيَـسِـيـرُ الْـقَـلْـبُ فـي الْـجِـسْـمِ مَـاشِـيَـا[٥]
قَـوَاصِـدَ كَـافُـورٍ تَـوَارِكَ غَـيْـرِهِ
وَمَـنْ قَـصَـدَ الْـبَـحْـرَ اسْـتَـقَـلَّ الـسَّـوَاقِـيَـا[٦]

---

(١) الصفا: الصخر. البزاة، الواحد باز: من جوارح الطير. يصف الشاعر تلك الجياد، إنها قوية العدو، تحفر الصخور بحوافرها فتنقش عليها صور البزاة لشدّة وطئها.

(٢) يروى «ينظرن» بدلاً من «تنظر». يقصد بـ سود: العيون السود. الدجى، الواحدة دجية: عتمة الليل. يصف الشاعر تلك الجياد في مسيرها ليلاً، إنها حادّة النظر، فهي ترى أشباحاً سائرة في عتمة الليل فتتبيَّنها وتتيقَّن منها لحدّة بصرها.

(٣) الجرس: الصوت. السوامع: الآذان. يخلن: يحسبن. المناجاة: الحديث الخفي بين اثنين. التنادي: المناداة بين اثنين أو أكثر. يُتابع الشاعر وصف تلك الجياد، إنها حادّة السمع، تسمع الصوت الخفي الذي يدور بين المتحادثين، فإذا بها تنصب آذانها، فإذا أحسّت أدنى الأصوات تنبّهت، كأنها سمعت مناداة بعيدة.

(٤) يقصد بفرسان الصباح: المغيرين مع الفجر. الأعنة، الواحد عنان: سير اللجام، المقود. يُتابع الشاعر وصف تلك الخيول، إنَّها قوية جدًّا، تجاذب المغيرين في الصباح والناس يستسلمون لنوم هادئ. فإذا بها تشدّهم بعنف، فإذا بأعنتها كأنها حيّات تسعى لطولها.

(٥) يصف الشاعر عدو تلك الخيول بفرسانها؛ إنها قوية الانطلاق، فإذا بقلوبهم تنخلع من أبدانهم، والخيول تسبح نشوى في جريها.

(٦) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٩. ووردت الأبيات الثلاثة المتوالية =

فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ
وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآقِيَا[١]
نَجُوزُ عَلَيْهَا الْمُحْسِنِينَ إِلَى الَّذِي
نَرَى عِنْدَهُمْ إِحْسَانَهُ وَالأَيَادِيَا[٢]
فَتًى مَا سَرَيْنَا فِي ظُهُورِ جُدُودِنَا
إِلَى عَصْرِهِ إِلَّا نُرَجِّي التَّلَاقِيَا[٣]
تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ
فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَذَارِيَا[٤]

= في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. يتخلّص الشاعر إلى مدح كافور، فالخيول تُسابق الريح، فلا تلتفت إلى الوراء كأنها هاربة مما يُرعبها تقصد الأمن والأمان في كنف كافور، إنه بحر يزخر بالنعم فيفيض كرماً، مخلّفة وراءها سواقي قد تنضب في بعض الحالات والأوقات، وبذلك ينعى الشاعر على سيف الدولة قصوره بالمكرمات.

(١) إنسان العين: البؤبؤ، مركز النظر. إنها ضربة حظّ، فقد وافت ظروف الشاعر ما يتمنّاه، فالتقى بإنسان عين زمانه، فبه الزمن يُبصر فوافته على عجل وتركت من لا قيمة له ولا يُنتفع به، إنه بياض ولكنه ميت لا فائدة منه.

(٢) يروى «نحوز» بدلاً من «نجوز». نحوز: نتجاوز. الأيادي: النعم، العطايا. يردف الشاعر أنه قد تجاوز على تلك الجياد أناساً منعمين يتمثّلون بسيف الدولة وعشيرته إلى من هو خير منهم، يُرفدهم بعطاياه. لقد جعل الحنق الشاعر يُخطئ بحق سيف الدولة وعشيرته وهم من أفاض عليه الخير بلا حساب، وهذا ما سوف يأسف له عندما يتكشّف حقيقة كافور في ما بعد.

(٣) السري: المشي ليلاً، والسير مطلقاً. الجدود، الواحد جَدّ، بفتح الجيم: الحظّ. نرجي: نأمل. يمدح الشاعر كافوراً بالفتوّة، والفتوّة تعني كمال الجود والشجاعة والنبل والخلق الكريم، ويرى الشاعر أن الأقدار قد ابتسمت له أخيراً، إنه على موعد مع الحظّ السعيد والأماني العِذاب بلقائه كافوراً.

(٤) العُون، الواحدة عوان: الثيّبات. العذارى، الواحدة عذراء: البكر التي لم تمسَّ. يرفع الشاعر من قدر ممدوحه، فهو رائد في عالم المكرمات ما يفعله منها لم يُسبق إليه، وهو من اختراعه في أبوابه التي افتتحها بجوده العميم.

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ الْبُغَاةِ بِلُطْفِهِ
فَإِنْ لَمْ تَبِدْ مِنْهُمْ أَبَادَ الْأَعَادِيَا[١]

أَبَا الْمِسْكِ ذَا الْوَجْهُ الَّذِي كُنْتُ تَائِقاً
إِلَيْهِ وَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيَا[٢]

لَقِيتُ الْمَرْوَرَى وَالشَّنَاخِيبَ دُونَهُ
وَجُبْتُ هَجِيراً يَتْرُكُ الْمَاءَ صَادِيَا[٣]

أَبَا كُلِّ طِيبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ
وَكُلَّ سَحَابٍ لَا أَخُصُّ الْغَوَادِيَا[٤]

---

(١) البغاة، الواحد باغٍ: المعتدي. يُنوّه الشاعر بحنكة كافور في معالجة أحقاد أعدائه، فهو يستلّ عداوتهم بحسن تلطّفه وسياسة اللين، وإن لم تُفلح لجأ إلى القضاء عليهم فأهلكهم بقطع شأفتهم، فكانوا من الهالكين.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. أبا المسك: كنية كافور من اختراع الشاعر. تاق: اشتاق. يُخاطب الشاعر كافوراً متودّداً إليه؛ فقد كنّاه بأبي المسك، ذلك الطيب النادر الثمين، ولقد ملأه الشوق الجارف للقاء كافور، فكان مع الحظّ على موعد، ولطالما تمنّى الشاعر هذه الفرصة التي لا تفوّت، فلينتهزها.

(٣) ورد البيت في المحتسب، لابن جني ٢: ٢٠١، أمالي ابن الشجري ١: ٨٤، ١٩٧. المروري، الواحدة مروراة: الفلاة الشاسعة. الشناخيب، الواحد شنخوب: ناحية الجبل المشرفة، ورؤوسه. جبت: قطعت. الهجير: وقت انتصاف النهار في الصيف الحارّ. الصادي: العطشان. يصف الشاعر ما واجهه من صعوبات وما لاقاه من مشاق؛ فقد قطع صحراء ممتدّة الأطراف وتسلّق قمم الجبال وواجه حرّ الشمس في صحراء يُفتقد فيها إلى ظل في الهاجرة، حتى إنه يجعل الماء يعطش لعطشه.

(٤) الغوادي من السحب، الواحدة غادية: التي تأتي بمطر الصباح. يُخاطب الشاعر ممدوحه فيُكنّيه بأبي الطيوب وليس فقط أبا المسك، إنها المغالاة، فإذا به مجمع للطيوب تنتشر وتفوح في الأرجاء فتُمطر خيراً في كلّ وقت وليس فقط مع إطلالة الفجر الأولى.

يُـدِلُّ بِـمَـعْـنًـى وَاحِـدٍ كُـلَّ فَـاخِـرٍ
وَقَـدْ جَـمَـعَ الـرَّحْـمَـنُ فِـيـكَ الـمَـعَـانِـيَـا[١]
إِذَا كَـسَـبَ الـنَّـاسُ الـمَـعَـالِـيَ بـالـنَّـدَى
فـإِنَّـكَ تُـعْـطِـي فـي نَـدَاكَ الـمَـعَـالِـيَـا[٢]
وَغَـيْـرُ كَـثِـيـر أَنْ يَـزُورَكَ رَاجِـلٌ
فَـيَـرْجِـعَ مَـلْـكـاً لِـلْـعِـرَاقَـيْـنِ وَالِـيَـا[٣]
فَـقَـدْ تَـهَـبُ الْـجَـيْـشَ الَّـذِي جَـاءَ غَـازِيـاً
لِـسَـائِـلِـكَ الْـفَـرْدِ الَّـذِي جَـاءَ عَـافِـيَـا[٤]
وَتَـحْـتَـقِـرُ الـدُّنْـيَـا احْـتِـقَـارَ مُـجَـرِّبٍ
يَـرَى كُـلَّ مَـا فِـيـهَـا وَحَـاشَـاكَ فَـانِـيَـا[٥]

(١) ومن الإفراط في المغالاة والكذب الصراح أن البشر يفتخر الواحد منهم بفضيلة واحدة على من سواه ويُدلّ بها عليهم وهذا شيء طبيعيّ، بينما جعل المتنبي من كافور مجمع سائر الفضائل قد خصّه الرحمن برحمته الواسعة دون سواه فمنحه كلّ شيء.

(٢) و (٣) الندى: الجود. يُخاطب الشاعر ممدوحه، بأن البشر يشترون المعالي بإنفاق الأموال في سبيل الحصول عليها، بينما يتبرّع كافور بالمعالي ذاتها، فهو لا يكتفي بإعطاء الأموال بل يُضيف إليها المراكز الرفيعة يتولّاها من يتقرّب إليه. وكأن الشاعر يلمّح إلى ما يدور في خلده ويسعى إليه، وهو يُمهّد إليه بذلك، ولم يُخف رجاءه طويلاً؛ فأقلّ ما يرجوه امرؤ قصد إليه تأدية خدمة بسيطة أن يرجع إلى بلاد العراق وقد أوكل إليه أمرها. في هذا يلمح المرء تسرّع الشاعر وعدم حسن سياسة منه أو استهانته بكافور، وما شجعه على ذلك تهالك الممدوح، فظنّ فيه خرقاً وغباءً، فصرّح بذلك.

(٤) العافي: قاصد المعروف. يمدح الشاعر في كافور الجود والشجاعة، جيش مجهّز تامّ العدد والعُدد يقوده ليأتي بالنصر، فإذا جاء طالب معروف يستمطره من فضله أوكل إليه أمر الجيش ليكون في ملاكه وتحت إمرته.

(٥) ورد البيت في خزانة الأدب، للبغدادي ٣: ٣٤٦. المجرِّب، بكسر الراء: الخبير =

وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْمُلْكَ بِالْمُنَى
وَلَكِنْ بِأَيَّامٍ أَشَبْنَ النَّوَاصِيَا[١]
عِدَاكَ تَرَاهَا فِي الْبِلَادِ مَسَاعِياً
وَأَنْتَ تَرَاهَا فِي السَّمَاءِ مَرَاقِيَا[٢]
لَبِسْتَ لَهَا كُدْرَ الْعَجَاجِ كَأَنَّمَا
تَرَى غَيْرَ صَافٍ أَنْ تَرَى الْجَوَّ صَافِيَا[٣]
وَقُدْتَ إِلَيْهَا كُلَّ أَجْرَدَ سَابِحٍ
يُؤَدِّيكَ غَضْبَاناً وَيَثْنِيكَ رَاضِيَا[٤]

= الذي عرك الحياة وعركته. ينوّه الشاعر بما يُسمى زهداً بما في هذا الوجود؛ فكافور لا يهتم بسفاسف الأمور؛ فالأموال والأطيان وكلّ ما تحت يديه لا يُعطيه التفاتة، ويتنازل عنه لمن طلبه طواعية، فبرغم معرفته وتجربته في الحياة، فقد تيقّن بأن كلّ شيء إلى زوال. ويتمنّى الشاعر البقاء لكافور.

(١) المنى، الواحدة منية. النواصي، الواحدة: ناصية: شعر مقدم الرأس. يقصد بالأيام: الحروب، فالعرب تسمّي الحروب بالأيام. ينوّه الشاعر بعزم كافور وسعيه في طلب المعالي؛ إنها لم تكن ضربة حظّ ولم تأته مصادفة، بل كانت نتيجة كدّ وتعب، فقد خاض الحروب وقاسى مرارتها حتى أتته المعالي ضارعة، فكانت أيامه ووقائعه الحربية تشيب النواصي.

(٢) المراقي، الواحدة مِرقاة: درج السلم. يخاطب الشاعر كافوراً بأن سعي أعدائه من الملوك في سبيل توسيع ممتلكاتهم باستيلائهم على أملاك الآخرين، أما كافور، فقصده من طلب المعالي أسمى وأعلى أهدافاً ليرقى في سلم المجد حتى يُدرك السماء فيُمسك بيديه نجومها وكواكبها.

(٣) العجاج، الواحدة عجاجة: الغبار، يُشيد الشاعر بحبّ كافور لإراقة الدماء وخوض الحروب، فهو دائماً في المعارك، وقد غطّاه الغبار لكثرة ما خاض من حروب، لذا فهو لا يرى إلّا رفيق الغبار، فإن لم يكن في معركة اغبرّت الدنيا في عينيه ولم يرتح لما هو فيه من دعة.

(٤) الأجرد من الخيول: قصير الشعر. السابح من الخيول: الذي يعدو كأنه يسبح. =

وَمُـخْـتَـرَطٍ مَـاضٍ يُـطِـيـعُـكَ آمِـراً
وَيَـعْـصِي إذا اسْـتَـثْـنَـيْـتَ لَـوْ صِـرْتَ نَـاهِـيَـا[١]
وَأَسْـمَـرَ ذِي عِـشْـرِيـنَ تَـرْضَـاهُ وَارِداً
وَيَـرْضَـاكَ فِـي إيـرَادِهِ الـخَـيْـلَ سَـاقِـيَـا[٢]
كَـتَـائِـبَ مَـا انْـفَـكَّـتْ تَـجُـوسُ عَـمَـائِـراً
مِـنَ الْأَرْضِ قَـدْ جَـاسَـتْ إلَـيْـهَـا فَـيَـافِـيَـا[٣]
غَـزَوْتَ بِـهَـا دُورَ الـمُـلُـوكِ فَـبَـاشَـرَتْ
سَـنَـابِـكُـهَـا هَـامَـاتِـهِـمْ وَالْـمَـغَـانِـيَـا[٤]

= يُردف الشاعر مخاطباً كافوراً أنه يمتطي جواده الأجرد فيعدو به سريعاً، وقد دخل المعركة يحمله غضبه بعنف على أعدائه يُنكّل بهم ويقتّل منهم، ثم يعود من المعركة راضياً بما صنع مكلّلاً بالنصر على جواده ليرتاح من عناء القتال.

(١) مخترط ماضٍ: سيف مسلول. يُتابع وصف أفعال كافور في حروبه، لقد جرّد سيفه وراح يضرب به بإرادته، إنه مطواع يأتمر بأمره إذا بطش بأعدائه، ولو استثنى كافور منهم أحداً لما لبّى سيفه أمره بل مضى يتخلّص من كلّ عدوّ معاند.

(٢) يقصد بالأسمر: الرمح. ذي عشرين: أي ذي عشرين كعباً. يُخاطب الشاعر كافوراً بأنه يورد رمحه الطويل فرسان الأعداء فيرتوي من دمائهم، فيكون كلّ منهما راضياً عن صاحبه، لقيامه بواجبه نحو الآخر؛ الرمح اكتفى بما شرب من الدماء وكافور سرّه فعل رمحه.

(٣) الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجيش. تجوس: تتخلل الديار. العمائر، الواحدة عمارة: القبيلة العظيمة القائمة بذاتها. الفيافي: الفلوات. يُخاطب الشاعر كافوراً بأنه يرسل كتائبه لغزو أعدائه الموغلين في البعد فتقطع المفاوز وتُوغل في البلاد فتُعمل قتلاً وتخريباً وتقضي أربه من القبائل العظيمة وتعود له بالنصر.

(٤) السنابك، الواحد سنبك: حوافر الخيول. الهامات، الواحدة هامة: الرؤوس. المغاني، الواحد مغنى: البيت. يُتابع الشاعر وصف أعمال تلك الكتائب المنتصرة على الدوام، ها هي الآن تغزو الملوك فتقتلهم وتدوس الخيول رؤوسهم لكثرتهم زيادة في إذلالهم وتجوس ديارهم تعمل فيها تخريباً وتدميراً.

وَأَنْـتَ الَّـذي تَـغْـشَـى الْأَسِـنَّـةَ أَوَّلاً
وَتَـأْنَـفُ أَنْ تَـغْـشَـى الْأَسِـنَّـةَ ثَـانِـيَـا[١]
إِذَا الـهِـنْـدُ سَـوَّتْ بَـيْـنَ سَـيْـفَـيْ كَـرِيـهَـةٍ
فَـسَـيْـفُـكَ فِـي كَـفٍّ تُـزِيـلُ الـتَّـسَـاوِيَـا[٢]
وَمِـنْ قَـوْلِ سَـامٍ لَـوْ رَآكَ لِـنَـسْـلِـهِ
فِـدًى ابْـنِ أَخِـي نَـسْـلِـي وَنَـفْـسِـي وَمَـالِـيَـا[٣]
مَـدًى بَـلَّـغَ الْأُسْـتَـاذَ أَقْـصَـاهُ رَبُّـهُ
وَنَـفْـسٌ لَـهُ لَـمْ تَـرْضَ إِلَّا الـتَّـنَـاهِـيَـا[٤]
دَعَـتْـهُ فَـلَـبَّـاهَـا إِلَـى الْـمَـجْـدِ وَالْـعُـلَـى
وَقَـدْ خَـالَـفَ الـنَّـاسُ الـنُّـفُـوسَ الـدَّوَاعِـيَـا[٥]

---

(١) تغشى: تأتي. الأسنّة، الواحد سنان: نصال الرماح. يأنف: يستكبر. يشيد الشاعر ببطولة ممدوحه، إنه الأول في كلّ مجال، هاهو الأول من يُبادر القتال فيتصدّى لرماح الأعداء أولاً يبطش بهم ويقتل فيهم، وعادته دائماً لا تتغيّر، لأنه يأنف أن يتأخر عن المقدمة.

(٢) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨. الكريهة: الشدّة في الحرب. سيوف الهند أقوى السيوف، فلو أنها صنعت سيفين بمواصفات مشتركة واحدة، وكان من نصيب أحدهما كانت الغلبة لذلك السيف، فكفّه تزيل التساوي لأنها غالبة باستمرار.

(٣) ومن مغالاة الشاعر أن ساماً يُضحّي بنفسه وولده وماله في سبيل الحفاظ على كافور، وهو يفخر أنه ابن أخيه حام.

(٤) و (٥) المدى: الغاية. إنه توفيق إلهي ما وصل إليه الأستاذ كافور يُردفه عزم صادق وإرادة عالية تسعى دائماً إلى بلوغ أقصى ما يُمكن من العظمة، إنها هموم كافور في هذا الوجود؛ توافقت الأقدار المؤاتية مع رغبة جامحة وطموح لبلوغ أعلى قمم المجد، فتربّع مستريحاً لا يُنازعه مخلوق على مكانته، بينما غيره ممن يتمنّى ويرغب أن يحلّ محلّه لا تكفيه الإرادة أن يتمنّى فمتطلّبات المجد لا تتوفر =

فَـأَصْـبَـحَ فَـوْقَ الْـعَـالَـمِـيـنَ يَـرَوْنَـهُ
وَإِنْ كَـانَ يُـدْنِـيـهِ الـتَّـكَـرُّمُ نَـائِـيَـا[١]

أشخصاً لحت لي أم مخازيا

يهجو كافوراً وقد نظر إلى شقوق في رجليه:

[الطويل]

أُرِيـكَ الـرِّضَـا لَـوْ أَخْـفَـتِ الـنَّـفْـسُ خَـافِـيَـا
وَمَـا أَنَـا عَـنْ نَـفْـسِـي وَلَا عَـنْـكَ رَاضِـيَـا[٢]
أَمَـيْـنـاً وَإِخْـلَافـاً وَغَـدْراً وَخِـسَّـةً
وَجُـبْـنـاً أَشَـخْـصـاً لُـحْـتَ لِـي أَمْ مَـخَـازِيَـا[٣]
تَـظُـنُّ ابْـتِـسَـامَـاتِـي رَجَـاءً وَغِـبْـطَـةً
وَمَـا أَنَـا إِلَّا ضَـاحِـكٌ مِـنْ رَجَـائِـيَـا[٤]

= لديه، إنها الشجاعة والجود ونبل الأهداف التي يتمتّع بها كافور، فضلاً عن التوفيق الإلهي والحظّ الحسن.

(١) نائياً: بعيداً. لقد سبق كافور العالمين في مضمار المجد، فبعد عنهم أميالاً، ورغم ذلك فهو قريب إلى قلوبهم لدماثة أخلاقه ورقّته وحسن معاشرته لهم؛ إنها الأخلاق السامية والتواضع الجمّ.

(٢) الخافي: المستتر. إنه المقت والغضب والإحساس بالندم، فالشاعر يتظاهر بأنه راضٍ ممّا يُبديه كافور من كرم واحترام للمتنبي، وهو في الحقيقة بركان حقد يتآكل في أعماق نفسه، عن كافور وعن نفسه، وقد تبيّن له فداحة خطئه. والمرء يعتقد أن الشاعر لا يجرؤ على هجاء كافور في حضرته، وقد تكون القصيدة قد أُلّفت في مصر، ولكنها بقيت طيّ الكتمان حتى خرج من تلك الديار فأذاعها.

(٣) المين: الكذب. الإخلاف: إخلاف الوعد. المخازي، الواحدة مخزية: الشنيع من الأفعال القبيحة. جمع الشاعر كلّ رذيلة في كافور، كذب، وإخلاف وعود، وغدر، وخسّة في التصرّف، وجبن، حتى لقد احتار الشاعر ماذا يرى أمامه، هل يرى إنساناً أم يرى نقائص بشرية تجسّدت بمخلوق بشري؟ أين الإشادة بكافور؟ حتى رفعه فوق سائر البشر.

(٤) الغبطة: الفرح والسرور. للابتسامات ترجمات نفسية متعدّدة من بينها السخرية =